مدخـــل

١ - الجذور الاجتماعية للانتقالات الأساسية فى التاريخ المصرى الحديث ، ومذاهب التعبير الأدبى المواكبة لها .

٢ - تطور قضية المرأة المصرية فى الفكر والواقع بين الثورتين .

obeikandl.com

obeikandl.com

الانتقالات الاجتماعية ومذاهب التعبير الأدبى

نشأة الطبقة الوسطى :

إن أى محاولة لدراسة فترة ما فى تاريخ شعب يجب أن تأخذ بعين الاعتبار المبادئ العامة للمنهج العلمى فى الدراسة ، ذلك أن التاريخ « لم يعد يعنى بوصف حياة الأبطال على أنهم القوة الدافعة فى تطور الأمم ، أو يهتم بالأحداث الفردية المنعزلة ، وإنما صار علمًا يشرح لنا تطور المجتمع ، تلك العملية الطويلة الأمد »[1] .

ولكى ندرك مسار التاريخ المصرى بين الثورتين ينبغى أن نحدد العوامل المادية والاجتماعية التى أفضت إلى تحديد التطور ، باعتبار أن التاريخ والمؤسسات السياسية ينشآن نتيجة للقوى المؤثرة فى حركة البشر . ولعل مركز السلطة فى مصر كان متمثلاً مطلع هذا القرن فى : « الاحتلال الذى لم يحاول أن يتخذ لنفسه صفة شرعية حتى إعلان الحماية ، حيث أصبح بعدها السلطة الفعلية الحاكمة ، أما السلطة الشرعية فكانت تتمثل فى الخديو والحكومة – مجلس النظار »[2] .

وهناك قوة ثالثة جديدة بدأت تظهر على مسرح الأحداث محاولةً لأول مرة وبشكلٍ منظّم ومستمر أن تفسح لها مكانًا بين السلطتين . والجدير بالذكر فى نشأة هذه الطبقة – التى قادت الحياة الفكرية وقامت بدور إيجابى فى تشكيل حركة التاريخ المصرى الحديث – أنها لم ترتبط بتدهور الإقطاع الزراعى ولا باضمحلال الطبقة الممثلة له ، وإنما سارت حركتها الاجتماعية فى تناسب عكسى مع سقوط العناصر الأجنبية من مماليك وأتراك وجراكسة . ثم إن نمو هذه الطبقة اتسق مع السمة البارزة لثروة مصر فانحصرت فى فئة ملاّك الأراضى . وقد بدأت هذه الطبقة حركتها المؤثرة بقوة فى أيديولوجية المجتمع بعد فشل الثورة العرابية . ولا نصل إلى العقد الأول من القرن العشرين حتى تكون بالفعل كما سمّاها فيلسوفها – لطفى السيد – « صاحبة المصالح الحقيقية » ، وهى فى محاولاتها المتكررة لأخذ دورها فى قيادة الأمة تعبير عن نزوع مصر « الشعب » لتقوم بدورها فى السيطرة على مقدرات الأمور فى بلادها . إذ إن التكوين الاقتصادى أهلها لأن تقوم بدور إيجابى فى تاريخنا الحديث . والوعى بهذا

---

(١) التفسير الاشتراكى للتاريخ : راشد البراوى ط . النهضة المصرية ، القاهرة – ص ١ .

(٢) ثورة ٢٣ يوليو : محمد أنيس – السيد حراز ط . ١٠ النهضة العربية ، القاهرة – ص ١١١ .

الأساس المادى يكشف عن الدور الذى قامت به ، ويهيّىء الأذهان للتقويم الحقيقى لفلسفتها الاجتماعية وآرائها السياسية وصراعاتها الحزبية وعلاقتها بالقصر والمحتل والمغامرين الأجانب فى الزراعة والصناعة ، ويكشف أيضًا عن موقفها العدائى أحيانًا من القواعد الشعبية أو من سماهم سعد زغلول « بالرعاع » .

وقد انضوتْ هذه الطبقة فى الغالب تحت لواء حزب الأمة (١٩٠٧) ، الذى استوعب « الوطنية المصرية » وأكد على الجانب القومى من شخصيتها ، بعد أن نادى لطفى السيد بأن « مصر للمصريين » . وهذا الحزب يعتبر خطوة أكثر تقدمية من الحزب الوطنى المعاصر له ، باعتباره استمرارًا لآراء الإمام محمد عبده الإصلاحية . وفلسفة هذا الحزب تعود بالدرجة الأولى إلى فليسوفه ومؤسسه – لطفى السيد – إذ أثّر فيها منذ مطلع القرن العشرين وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وهذه الفلسفة أساسها مذهب الحرية (Libralism) ، التى تستوعب كثيرًا من مبادئ المذهب النفعى كما حدده بنتام وجون ستيوارت مل ، والتى لا تضحّى بحرية الفرد من أجل حرية المجموع أو الحكومة ، ومن ثم كانت (حرية الفرد) مدخلاً للرقى الاجتماعى ثم التحرر الوطنى . وعلى هذا لا تتناقض الحرية وطبيعة التكوين النفعى للبرجوازية بتسخير أجهزة الدولة لها ، وتدعيم استقرارها كطبقة تقف على الجانب المضاد للطبقة الحاكمة ، ولذلك لم يكن لهذه الفلسفة الليبرالية وجه اجتماعى يهدف إلى تحقيق نوع من العدالة الاجتماعية لجميع المواطنين . ومع هذا يبقى لتلك الفلسفة جانبها المشرق فى ناحيتيْن :

١ – الدعوة إلى تحرير الوطن عن تركيا وانجلترا ، وخلق السمات المميزة للأيديولوجية المصرية .

٢ – الكفاح الدستورى لتقييد الملكية المطلقة أداة الاستعمار ، وتثبيت دعائم النظام البرلمانى والدستورى فى مصر .

وقد تصدتْ هذه الطبقة لقيادة جميع أوجه النشاط السياسى والفكرى والأدبى والاجتماعى فى مصر بين الثورتين ، وشكّلت مسار هذه الأوجه بما يتناسب مع مصالحها المادية وفلسفتها الليبرالية النفعية .

ثورة الشعب وقيادة « الأفندية » :

بقيام الحرب الأولى وإعلان الحماية البريطانية فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، دخلت القوى الاجتماعية فى مصر مرحلة مظلمة ، تعرضت فيها لمساوئ الاستعمار والحرب ، وفى أثناء ذلك بدأت إنجلترا وفرنسا تخططان لضم مصر والمنطقة العربية إلى إمبراطوريتيهما . وكان اتفاق « سايكس - بيكو » مخيبًا لآمال الأمة العربية ، ولذلك أوعز حسين رشدى رئيس الوزارة آنذاك إلى ثلاثة من أعضاء الجمعية التشريعية بمباحثة « وينجت » فى أمر الاستقلال ، وليظهروا أمام ممثل الاحتلال بصفة شرعية زادوا عدد أعضائهم ، ثم لجأوا إلى صيغة توكيل يعنى نيابتهم عن الأمة فى طلب الاستقلال « بالطرق السلمية » . ولا يعنينا الآن إبراز الصيغة المتواضعة للتوكيل ، أو بيان موقف العنف الذى اتخذه الاستعمار الانجليزى من الموكّلين ومن ثاروا من الشعب ، وإنما نؤكد حقيقتين :

الأولى : إن الوفد الذى تصدّى لزعامته : سعد زغلول - على شعراوى - عبد العزيز فهمى - لطفى السيد - حمد الباسل - محمد محمود - عبد اللطيف المكباتى - على علوبة وغيرهم ، يعدّ تجميعًا للصفوة الممتازة فكريًا واقتصاديًا من الطبقة البرجوازية الجديدة الذين انساقوا فى الدفاع عن الوطن والمطالبة باستقلاله بطرق سلمية تعتمد على المفاوضة ، ولا تفكر فى النضال المسلح باعتباره الوسيلة الشرعية والطبيعية لإعادة كل حق مسلوب . أكثر من هذا غرابة بعد أن فشلت الثورة نجدهم يحافظون على مكاسبهم الطبقية الجديدة وأوضاعهم الاقتصادية التى كفلها دستور ١٩٢٣ ، أكثر من محاولتهم المحافظة على حقوق (الشعب) الذى يحكمون باسمه .

الثانية : إن توكيل الوفد قد وقعت عليه كل القوى الاجتماعية بطريقة تدل على يقظة الوعى الوطنى فى مصر قاطبة : مدنًا وقرى - مسلمين ومسيحيين - رجالاً ونساء . وعلى هذا فقد كانت الثورة ثورة شعبية صميمة تشمل جميع فئات الأمة ، ولكن « الأفندية » البرجوازيين ركبوا الموجة الثورية ، وحاولوا أن يحققوا عن طريقها مكاسب طبقية ووطنية فى آن واحد ، ولما كانت الأوضاع الداخلية تحول دون تحقيق مكاسب فعالة للوطن ، توجهوا إلى أن يحققوا لأنفسهم مكاسب تثبّت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية .

وقد نجم عن فشل ثورة ١٩١٩ الحقائق التالية :

١ – استمرار سلطة الاحتلال ، وإن حصلت البلاد على استقلال صورى بموجب تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ ومعاهدة شكلية بالاستقلال سنة ١٩٣٦ ، مع أن بنودها كانت تتنافى مع جوهر الاستقلال . ومن بنود المعاهدة يتبيّن إلى أى حدٍ فرط المتفاوضون فى حق وطنهم وربطوا مصر بانجلترا ، ومع ذلك سماها مصطفى النحاس « معاهدة الشرف والاستقلال » .

٢ – تزايد سلطة الملك ، بتقربه من الاستعمار باعتباره ظلًا يستمد منه وجوده وقوته ، فى وقت كان الملك يمارس فيه ضغوطًا شديدة على الوزارات الشكلية ليكسب مزيدًا من النفوذ والسلطة للتحكم فيها ، ولم تعد الأمة وقتئذ مصدر السلطات وإن نص الدستور على ذلك . وقد تحول هذا الدستور – الذى كان منحة من الحاكم بين مد وجزر – إلى قصاصة بهتتْ عليها الحقوق الشكلية للحكم الدستورى والنظام البرلمانى .

٣ – بسقوط حكومة الشعب برئاسة سعد زغلول سنة ١٩٢٤ بعد مقتل السردار ، ثم فشل الائتلاف الوزارى الذى تكون برئاسة سعد زغلول سنة ١٩٢٦ ، انطفأ كل أمل فى أى عطاء سياسى واجتماعى للثورة ، يمكن أن يقدمه من ركبوا « أمواجها الثورية » . وبتولى محمد محمود الوزارة فى يونيو سنة ١٩٢٧ تحكم البلاد حكمًا جائرًا ، وتكبت الحريات وتكمم الأفواه ، ويصبح الدستور كما يراه عبد العزيز فهمى « ثوبًا فضفاضًا » ، لا يقدر الشعب على ارتدائه .

٤ – إن الوزارات المختلفة التى تولت حكم مصر بين الثورتين كانت بأمر الانجليز أو السراى أو هما معًا ، ومن ثم كانت تحاول إرضاءهما ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا ، وتخلت عن الشعب وأهدرت كل قيمة له متناسية أنها بذلك تتخلى عن منبعها الأصيل .

٥ – إن ثورة مارس سنة ١٩١٩ كانت تتويجًا لميلاد (البرجوازية) طبقة جديدة ، ترتكز على أساس اقتصادى قوى ، وثقافى غربى عميق ، ومن هنا دخل التاريخ الوطنى مرحلة جديدة كان عطاء الفكر فيها أروع وأدعى إلى التقدير من الدور السياسى ، فإلى الطبقة الوسطى يُعزى القيام بدور (التجديد) فى فكرنا المعاصر بعد أن مر بطور (الإحياء) فى القرن التاسع عشر . ولكن هذه الطبقة بانغلاقها حول الذات المفردة ، وسعيها الدائب لتوكيد وجودها الطبقى دون إحساس

عميق بآلام الوطن المحتل ، والمواطنين الذين تطحنهم آلام الجوع ، لم تعد قادرة على تحقيق آمال الشعب فى الحرية والعدالة الاجتماعية .

ولكن حتمية التطور بالإضافة إلى عوامل التغيير المختلفة التى شملت مصر مع ظهور الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، أدت إلى ظهور جناح جديد - ينتمى إلى البرجوازية الصغيرة ممثلة فى صغار الفلاحين والموظفين والتجار والعمال والطلبة والجيش - يقوم بقيادة حركة الكفاح الوطنى .

الرومانسية ضرورة للتعبير الأدبى عن الطبقة الوسطى :

يذهب « جارودى » إلى أن كل عمل فنى أصيل يعبّر عن شكل الوجود الإنسانى فى العالم ، والفن باعتباره انعكاسًا لتفاعل الإنسان مع الواقع ورؤيته الخاصة لحركته يساعد الإنسان على أن يخلق قيمه فى الوقت الذى يخلق فيه حاجاته وممكناته ، والقيم التى يفرزها الفن هنا ليست قيم فرد ، بل هى سمات مجتمع فى ظروف خاصة ، هى حضور الذات فى الغير ، أى أن الفرد تاريخيًا لا يعى أبدًا نفسه إلا فى إطار حضارة ، أى فى قلب جماعة[١] .

وعلى هذا تتحدد أهمية العمل الأدبى بقدر رسوخ أصوله فى وعى العصر الذى كتب فيه ، والأديب سواء أكان على وعى أم بغير وعى ينضوى تحت مذهب معين للتعبير الفنى فى عصره . ومذاهب التعبير محصلة للتيارات الفكرية والحضارية السائدة ، كما تكون استجابة لحاجات المجتمع ، وكثيرًا ما تؤثر هذه الحاجات فى التيار الفكرى نفسه وفى توجيهه . وعلى هذا فليس من بين المذاهب ما يفرض نفسه فرضًا على العصر دون أن تكون هناك ضرورة اجتماعية وفكرية يظهر صدى لها .

والعصر الذى نتناول إنتاجه الروائى قد شهد تغيرًا فى بنية المجتمع حدد سمات الفكر ونظرية الأدب فيه ، نتيجة لتوزيع الثروة الاقتصادية وما ترتب عليها من تحديد لعلاقات الناس فى المجتمع ، ومن ثم كان ميلاد البرجوازية المصرية طبقة جديدة لها مصالحها المادية ، وبالتالى فلسفتها النفعية ، وحزبها الذى يضم صفوة عناصرها الفكرية والمادية . ومن هنا كانت محاولة احتوائهم لثورة سنة ١٩١٩ ، وتسلطهم على

---

(١) يراجع روجيه جارودى فى :

- واقعية بلا ضفاف : ترجمة حليم طوسن ط . دار الكاتب العربى ، القاهرة - ص ٢٢٥ .
- ماركسية القرن العشرين : ترجمة نزيه الحكيم ط . الآداب ، بيروت - ص ١٣٠ .

العمل السياسى بين الثورتين . كما أن مثقفى هذه الطبقة تبنوا اتجاهات التجديد ، بينما انحصرت دعوات الإصلاح - عند السلفيّين - الذين هم أقرب اجتماعيًا إلى الطبقات الشعبية وفكريًا إلى الثقافة التقليدية .

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادى والاجتماعى لهذه الطبقة ووضوح دورها فى جميع نواحى الحياة ، إلا أن أدباءها ومفكريها قد أحسوا بشىء من المرارة نتيجة فشل الثورة وانحصار المستفيدين من نكستها فى فئات قليلة ، بالإضافة إلى أن بعض اتجاهات التقدم والتجديد التى وضعت بذورها قبيل الثورة بدأت تضعف ، ومن هنا كانت موجة الإحساس العميق بالضياع والألم النفسى ، نجدها فى : شعر عبد الرحمن شكرى ، وسخرية إبراهيم المازنى فى كتاباته المختلفة ، وأحزان مصطفى المنفلوطى فيما ألف وترجم . وفى « آلام فرتر » و « روفائيل » التى ترجمها أحمد حسن الزيات ، وعند أصحاب « المدرسة الحديثة » فى القصة الذين تعبر كتاباتهم ومسارهم الأدبى عن عمق الإحساس بالمرارة التى تعكس خيبة الأمل الكبيرة لرجال الأدب والفكر . وعلى هذا فإن البرجوازية عاشت الازدهار والأزمة فى آن واحد . انطلاقًا من فلسفة هذه الطبقة الذاتية انحصر طريقهم إلى النهضة فى التربية والتثقيف والتحرير الفردى ، على اعتبار أن تحرير (الفرد) وسيلة لتحرير الوطن .. ومن ثم لم يكن أمام هذا الفكر الليبرالى مفر من اتخاذ (الرومانسية) وسيلة للتعبير عن طموحه الفردى واستشرافًا لحريته المستلبة وشخصيته المغيبة وإفصاحًا عن أزمة الفرد فى المجتمع ، مع التأكيد على سمات الشخصية الوطنية فى الحياة والفكر والفن .

وفى مجال بلورة الشخصية الوطنية لمصر فى الأدب - بعد أن قامت المدرسة المعاصرة لمحمد عبده ومن سبقها بتحرير الأسلوب اللغوى من التكلف والصنعة - لم يكن إحياء القديم وحده ، ثم تطويعه للجديد الأوربى كافيًا لبلورة هذه الشخصية ، ومن ثم تفجرت ضرورة إبداع الفنون الأدبية التى لا أساس لها فى التراث العربى ، هذه الفنون - التى وردت على استحياء فى شكل ترجمة مع رفاعة الطهطاوى ومدرسته ، ثم انتقلت إلى دور التصرف فى الترجمة أو التأليف الشبيه بالمترجم - ما تلبث أن يتم لها الميلاد الحقيقى ، على يد أبناء الطبقة الوسطى اعتزازًا بذات الفرد ، وترجمة للمعانى الوطنية ، ورغبة فى تأكيد الشخصية المصرية العصرية فى الأدب ، ولعل هذا ما يفسر كون أول رواية لا تصدر باسم مؤلفها ولكن بتوقيع « مصرى فلاح » ، وإنتاج المدرسة الحديثة فى القصة يوصف تحت العنوان فى

الغالب – على أنه « قصص مصرية عصرية » . وهذا الاتجاه الوطنى لبعث الشخصية المصرية يمتد أيضًا إلى رواية التسلية فمؤلف رواية « الحال والمآل » يهديها « إلى الأمة المصرية » ويذهب إلى أن « أكبر شرف للإنسان أن يفتخر بانتسابه إلى أشرف أمة ، فإذا سعى إلى رفعة أمته فإنما يسعى إلى رفعته »[١] .

وقد امتد هذا إلى المسرح أيضًا وفاطمة اليوسف تروى فى ذكرياتها بعض ما كان يحدث فى هذا المجال بين محمد تيمور وعزيز عيد وسيد درويش أثناء تأليفهم لأوبريت « العشرة الطيبة » . وكانت تماثيل مختار « الفلاحة المصرية » و « نهضة مصر » وغيرهما تعبيرًا عن هذه الفكرة . بل تعدى هذا جانب الفن إلى جانب الاقتصاد بدعوة طلعت حرب إلى إنشاء أول مصرف وطنى سنة ١٩١٣ ليدعم الاستقلال السياسى بالاستقلال الاقتصادى .

وأثناء بلورة الشخصية الوطنية لمصر كانت هناك دعوة لتحرير المرأة وفتح الطريق أمامها لتشارك فى صنع الحياة ، فتحرير المرأة والأدب ونشأة الرواية ثمرة من نتاج فكر الطبقة الوسطى فى سعيها الدائب نحو تأصيل كل ما يساهم فى تحديد الشخصية الوطنية لمصر .

وإذا كانت هذه الطبقة الجديدة قد اتخذت الليبرالية منهجًا للتفكير ، فإنها بحكم المرحلة قد التزمت بالرومانسية مذهبًا للتعبير الأدبى .

وتتسم الرومانسية[٢] بأنها وسيلة لتحرير الشخصية الفردية من القيود التى سحقتها فى العصور الوسطى . وعلى الرغم من الفروق التى بدت بها فى البلاد المختلفة نجد أن « لها سمات مشتركة فى كل مكان : شعور بالقلق الروحى فى دنيا لا يستطيع الفنان أن يشعر فيها بالاستقرار ، وإحساس بالغربة والعزلة ، نشأ عنه توق إلى قيام وحدة اجتماعية جديدة واهتمام بالشعب ، واحتفاء بالتمييز المطلق للفرد والذاتية التى لا تقف عند حد . وفى عصر الرومانسية ظهر لأول مرة

---

(١) الحال والمآل : أحمد حافظ عوض ط – مكتبة الشعب القاهرة – ص ٥٤ .

(٢) جاء فى تعريف مادة (Romanticism) أنها كلمة انحدرت من الفرنسية القديمة وتطلق على الأعمال الخيالية خاصة فى الملاحم النثرية . وهى حتى فى المعنى اللغوى تستعمل كمقابل للكلاسية – وتعنى شيئًا شعبيًا مغامرًا ومن غير شكل . وتطورت الرومانسية فى كل البلدان مسبوقة بانهيار المجتمعات الارستقراطية والرغبة فى النهضة لدى الطبقات الوسطى . وترتبط الرومانسية – حين تظهر فى تاريخ الفن – بسقوط الكلاسية . والجانب المثير فى الشعور الإنسانى يكون مؤكدًا عليه . انظر :
Cassell's Encyclopeadia of Lit. Vol. 1, P. 478.

الكاتب الحر الذى يرفض كل قيد وكل ارتباط[١] .

وقد استوحى أدباؤنا الرومانسية إطارًا للتعبير بالنسبة للأنواع الأدبية عامة ، والرواية خاصة ، فهيكل رائد الرواية يعكس تأثيره الشديد بها فى تقديمه لرواية « زينب » حيث يصف عواطفه المشبوهة التى دفعته لكتابتها ، سواء أكانت هذه العواطف تتصل بشباب الكاتب وما له من « قوة وضعف وتوثب واندفاع وشعور سام لا يحده مدى ، ومخاوف وآمال لا تزال تخالطها آثار السنين الناعمة » ، أم تتصل بما يكنه الكاتب للوطن من حنين وإعجاب ، يجعله يشعر تجاه ما يصف « بلذة دونها كل لذة كلما سطر صورة من صور هذا الوطن » . وإعجاب الكاتب بوطنه لا يقل عن انبهاره بالأدب الفرنسى الذى علمه « الدقة فى الوصف والقصد فى التعبير » . وإصداره ترجمة مستفيضة عن (روسو) وأعماله (١٩٢٣) تدل على أن الرومانسية لم تصدر فى أدبه الروائى عفوًا .

ورومانسية المازنى فى الرواية لا تقل عن رومانسيته فى الشعر ، حيث تبدو الرواية عنده « مازينية » الشكل والمضمون . فأبطال رواياته لا يحملون بصمات نفسه الساخرة فحسب ، وإنما هم تجسيد لكل خواطره وهواجسه الفردية المضطربة ، فإبراهيم الثانى هو إبراهيم الكاتب - الأول - وإن كان ثمة تغيير فهو فى الصورة لا فى استحياء الذات المفردة التى تسخر من الحياة والأحياء .

والحكيم برغم تفرده الواعى ورهبنته الصارمة فى محراب الفن نجده فى رواياته رومانسيًا واضح السمات . وفى « التعادلية » - التى يقعّد فيها مذهبه فى الحياة والفن يرى أن « الالتزام المباح هو الذى لا يعطل التفكير الحر » . ويؤكد هذا المعنى فى « فن الأدب » حيث يؤكد أن التزام الأديب أو الفنان « شىء ينبع حرًا من أعماق نفسه ، فإن لم ينبع الالتزام حرًا من قلبه وبيئته وعقيدته فلا تلزمه أنت ولا تلزمه قوة فى الوجود . يجب أن يكون الالتزام جزءاً من كيان الأديب أو الفنان ، فالالتزام المثمر للفنان - فى رأيى - هو الذى ينبع من طبيعته »[٢] .

وعن نفس النغمة المتمردة حتى على أصول الفن وشكله يصدر طه حسين مؤرخ الأدب وناقده ، إذ يبدو أن سمات النفس الأدبية واحدة وإن تقمصت روح

---

(١) The neccesity of Art : Ernist Fischer, P.54.

(٢) التعادلية : توفيق الحكيم ط . الآداب ، القاهرة - ص ٨٨ .

ناقد أو مقعّد للأدب والفكر ، فهو يذكر « لو كنت أضع قصة ، لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ، لأنى لا أؤمن بها ولا أذعن لها ، ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن .. والمهم هو أن يخطر لى الكلام وأن أمليه وأن أذيعه »[١] .

فى هذا على سبيل المثال دلالة على أن الرومانسية كانت سمة مميزة للرواية ، وأن روّادها كانوا على وعى تام بأصولها وقواعدها الفنية وموقفها من التعبير عن الذات . هكذا يبدو جوهر الرومانسية : حركة احتجاج متحمس ومتناقض ضد العالم الرأسمالى ودنيا الآمال الضائعة "World of Lost Illusions" كما يذكر « فيشر » .

وهذه المرحلة التى شهدت موجة المدّ الرومانسى شهدت أيضًا أول تقعيد لفلسفة الفن عند العقاد – هذه الفلسفة التى تجعل من الجمال والحرية شيئًا واحدًا . إن الفكر العربى الذى تحرر لم يلبث أن وجد نفسه فى « الفنون الجميلة التى تشبع فينا حاسة الحرية وتتخطى بنا حدود الضرورة والحاجة ، أول مظهر من مظاهر ذلك الفكر الحر » .

والعقاد يربط الفن بالحياة عبر وسيط هام هو « الحرية » ، ويرى أن الحرية غاية الحياة ، وأن الشىء لا يكون جميلاً إلا بقدر ما يستجيب لهذه الغاية التى تنشدها الحياة ، بحيث يؤدى وظيفته دون أن تعوق حركته أية قيود . وإذا كانت نظرية العقاد متماسكة فى تفسير الجمال وتحديد طبيعة الفن فإن « الطابع الفردى » قد غلب على تصور العقاد لوظيفة الفن وشخصية الفنان »[٢] .

وهكذا نستطيع أن نربط بين نمو الطبقة البرجوازية فى مصر وبين ازدهار المذهب الرومانسى فى الأدب والنقد ، وقد صاحبت الرومانسية نشأة هذه الطبقة وبدأت سماتها تتضح وتبرز حتى تصل إلى مرحلة التفلسف والتقعيد المذهبى مع الازدهار الاجتماعى والاقتصادى . ولكن عجز الطبقة الوسطى بعد ذلك عن قيادة الأمة – وانغلاقها حول الذات تمجد سلطانها وتنمى ثرواتها بشراسة ، وتصديها لتمييع القضية الوطنية وعرقلة حركة القوى الاجتماعية ومحاربة كل تقدم فكرى أو نقد اجتماعى أو سياسى – تحت ستار التحفظات السياسية للخط الرجعى الذى اتسمت به

---

(١) المعذبون فى الأرض : طه حسين ط . دار المعارف ، القاهرة – ص ٢٢ .

(٢) فلسفة الفن فى الفكر المعاصر : زكريا إبراهيم . ط . دار مصر ، القاهرة – ص ٢٧٢ .

الحكومات الحزبية التى كانت تستمد وجودها من إرضاء السلطة الفعلية أو الشرعية على حساب الجماهير الشعبية – أدى إلى فقد البرجوازية لطاقاتها الثورية ، وبالتالى إلى ضعف المذهب الفنى المصاحب لفكرها .

وهنا تساؤل يبدو هامًا : هل تدين الرومانسية فى نشأتها وازدهارها للمناخ الفكرى المصرى ، لكى تعبر عن تطلع البشر وتعكس فلسفاتهم ، أم لتأثر بالغرب وانبهارٍ بكتّابه وأدبه ينسيان المنبهر ذاته ومتطلبات واقعه المحلى ؟ بالنسبة للجيل الأول فى الرواية نجدهم بلا استثناء متأثرين بالأدب الأوروبى عامة والفرنسى خاصة ، بل إن البدايات الناضجة للرواية قد كتبت فى فرنسا (زينب ١٩١٠ – عودة الروح ١٩٢٧) . ويلاحظ بصفة عامة أن الشعر والرواية التاريخية نشآ متأثريْن بالأدب الإنجليزى ، بينما الرواية الاجتماعية والمسرح تأثرتا بالأدب الفرنسى .

وجدير بالملاحظة : أننا بدأنا نهتم بالرومانسية – ونستهدى بكثير من النماذج المشهورة فى الأدب العالمى منها ، بحيث نستطيع أن نقول : إن الروائيين فى مصر قد تأثروا بأدباء رومانسيين بأعينهم ، أكثر من تأثرهم بالقواعد العامة للمذهب الرومانسى ، الذى جعلوه وعاء لجميع الأنواع الأدبية فى عصر بهتت فيه الرومانسية فى بلادها وأصبحت فى حكم المقضى عليها ، بينما كانت هناك مذاهب جديدة فى الأدب لها صفة الشمول . وهذا يفضى بنا إلى أن الواقع المصرى بما زخر به من ظروف سياسية ثائرة قلقة ، وأدبية لا تقل عنها ثورية من حيث الصراع بين القديم والجديد ، بالإضافة إلى انتشار الفكر الليبرالى والفلسفة النفعية مع إحساس عالٍ بالرغبة فى خلق سمات الشخصية الوطنية . كل هذا جعل الرومانسية الوعاء المناسب لاستيحاء هذه الظروف الاجتماعية والفكرية والأدبية القلقة الباحثة عن الذات . ولا نجد هذا فى الرواية وحدها بل يمتد أيضًا إلى الشعر والمسرح ، كما حدد طبيعة الأعمال المترجمة ، إذ نجد مترجمات مصطفى المنفلوطى لها صبغة رومانسية فاقعة ، وقد خفقت قلوب القراء العرب مع خفقات قلب ماجدولين وحرمان سيرانودى برجراك وآلام بول وفرجينى . ونفس القضية نجدها بالنسبة لأحمد حسن الزيات الذى ترجم « آلام فرتر » لجوته سنة ١٩٢٥ ، وطه حسين فى تقديمه لها يؤكد أن الزيات قد وُفق إلى حسن الاختيار ، « فالكتاب – على ماله من شهرة تلزم كل

ناشىء أن يقرأه ويفهمه – يمثّل حياة الآداب الأوروبية فى عصر هو أشد العصور شبهًا بهذا العصر الذى نسلكه ، فقد كانت أوربا حين كتب جوته آلام فرتر تعْبر عصر انتقال كعصرنا الذى نعبره ، سئمت مثلنا كل قديم وشغفت مثلنا بكل طريف . وودت لو أزاحها الكتاب والشعراء من تلك الأساليب العتيقة التى ألفوها فيما يكتبون وينظمون . كان الكتاب الأوربيون يودون لو خلصوا من تلك الأعباء الثقيلة التى كانت تنوء بالفن الأدبى ، ورجعوا فى التعبير عن إحساسهم وعواطفهم إلى الطبيعة الحرة الطليقة ، لذا نشأت طريقة (روسو) فى فرنسا وهى بعينها طريقة (جوته) فى ألمانيا ، كلا الرجلين يريد أن يترك لوجدانه وعواطفه الحرية فى أن تظهر للناس واضحة جلية ، لا تشوبها شوائب الزخرف والتنميق ولا تشوهها معايب الصنعة والتقليد »[1] .

وعلى هذا فإن الرومانسية نشأت نتيجة لظروف الواقع ، وكان رواد الأدب على وعى بمتطلبات المرحلة التاريخية لوطنهم ، لذلك نجد شكرى عياد يسمى جيل الروّاد جيل « العمالقة » لأنهم كانوا « ثوارًا » حرروا الأشكال الأدبية وتعبوا ليعثروا على نماذجهم الفنية »[2] .

ملاحظة أخرى تتعلق بأمر التأثر بالرومانسية فى الأدب هى : إننا لم نتأثر بها فى دعوتها الاجتماعية الثائرة الخاصة بتحرير الفرد والمجتمع ، لأن الظروف السياسية المضطربة قد جعلت الرومانسية خاصة بعد مدها وفتوتها فى البداية سبيلاً إلى الهروب والسلبية من مواجهة الواقع ومتطلباته .

من هنا كانت الرواية من خلال الإطار الرومانسى تسلك أحد سبيلين :

الأول : الالتفاف والانغلاق حول فرد يؤرقه الحرمان من الحب ، والشوق إلى السعادة العاطفية ، ومصدر الحرمان هو المجتمع بتقاليده الجامدة وما استتبعها من تحكم طبقة فى أخرى أو نوع فى آخر ، من هنا يبدو فى خلفية الرواية دائمًا نقد لسلبيات الواقع وأزماته كما أحسها الروائى من خلال تعامله معه .

الثانى : الالتجاء إلى الإطار التاريخى هربًا من الحاضر ، ليغلف رأيه فى الواقع بصورة مستمدة من خارجه ، فيصبح الرأى غير مباشر والنقد تورية ورمزًا .

---

(١) آلام فرتر .. جوته : ترجمة الزيات ط . عالم الكتب القاهرة . ص ١٢ .

(٢) تجارب فى النقد والأدب : شكرى عياد . ط . الكاتب العربى القاهرة ص ١٠ .

القوى الاجتماعية الجديدة وأرهاصات ثورة ١٩٥٢

تعد فترة الحرب العالمية الثانية وما تلاها من أشد الفترات تكثيفًا للآلام التى قاساها الشعب فى مصر ، ولذلك يطلق عليها « فترة الأزمة الكبرى » التى تخفى وراءها الأطلال المتهاوية من بقايا ثورة ١٩١٩ . أما القيادات السياسية فقد فقدت كل طاقاتها الثورية ، ومعاهدة ١٩٣٦ دليل التدهور الذى وصلت إليه الأحزاب ، التى فقدت قدراتها الخلاقة .

وقد ظهرت بين الثورتين كثير من التنظيمات السياسية والعقائدية المتطرفة والمتناقضة مثل : دعوة الإخوان المسلمين – الخلايا الشيوعية – حزب مصر الفتاة . وقد كثرت فى هذه الفترة إضرابات العمال والطلبة احتجاجًا على سوء الأوضاع العامة للوطن . ويؤكد اضطراب الأحوال أيضًا كثرة الاغتيال السياسى ، وتفشى الروح الأرهابية لدى بعض الفرق الحزبية .

فى وسط هذا الجو المشحون بالسلبيات السياسية والاجتماعية ظهرت فئات جديدة تمثل البرجوازية (المتوسطة والصغيرة) ينضوى تحتها : العمال والطلبة وصغار الملاك الزراعيين والتجار والموظفين والضباط[1] . وبرغم صدق الإحساس الثورى لدى هذه الفئات التى بدأت تأخذ دورها فى الكفاح لتحقيق الحرية السياسية والاجتماعية ، لكنهم – باستثناء الجيش – كانت تعوزهم القيادة المدبرة التى تنظم صفوفهم وتجمع كلمتهم من أجل عمل مشترك .

لقد كانت مصر قبل ثورة ١٩٥٢ مرجلاً يغلى بعوامل الثورة الكامنة فى أعماقه ضد السيطرة الأجنبية التى تسلب الحرية والرخاء ، وضد الحكم الداخلى المستبد ملكًا وحكومة اللذين يقفان ضد حركة التطور ، ويخدمان المحتل أكثر من خدمتها للشعب الذى يحكمان باسمه .

وقد أثبتت مصر برغم كل السلبيات قدرتها على مواصلة تاريخها الحضارى العريق بقيام الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ التى غيرت وجه الحياة فى مصر والمنطقة المجاورة لها .

---

(١) لمزيد من التفصيل عن طبيعة تكوين هذه القوى ودورها الوطنى ، يراجع : ثورة ٢٣ يوليو : محمد أنيس – السيد حراز ص ١٥٣ وما بعدها .

الواقعية ضرورة للتعبير عن القوى الاجتماعية الجديدة

من العوامل المساعدة على نشأة الاتجاه الواقعى فى الأدب والفكر عامة والرواية خاصة ، ظهور الفئات البرجوازية المتوسطة والصغيرة وانتشارها فى كافة مرافق الحياة ، ووجود الحس الواعى بأزمتهم الخاصة ومأساة الوجود العامة التى يعيشها الوطن . كذلك ساعد عليه انتشار الفكر الاشتراكى منذ زمن مبكر عن طريق صحيفة (المقتطف) التى يعزى إليها إدخال الفكر المادى فى مصر ، والتعريف بنظريات بُوخذ ولابارك وداروين وغيرهم من أصحاب النظريات العلمية التى تفسر الحياة علميًا ، وترى أن جميع الأحياء تخضع لنظام واحد فى التطور . وكان من أهم كتاب « المقتطف » يعقوب صروف وشبلى شميل ، ثم برز فى نهاية العقد الأول من هذا القرن كاتب وهب جهده وفكره لنشر الاتجاه العلمى والمبادئ الاشتراكية هو سلامة موسى (١٨٨٧ – ١٩٥٨) ، وقد أصدر كثيرًا من الكتب من أهمها : مقدمة السبرمان (١٩١٠) – الاشتراكية (١٩١٢) . وقد شارك بجهده الفردى فى إصدار « المجلة الجديدة » (١٩٢٠) التى كان يبشر فيها بالاتجاهات العلمية والاشتراكية ، وينشر آراءه فى فلسفة الفن ومعنى ارتباط (التزام) الأدب . كما كان يعطف على شبان الفكر والأدب . وجهاده كما حدده يدور حول : الكفاح لطرد المستعمر ، وسيطرة الاقتصاد الأوربى وتحرير المرأة وتطور الأدب ، حتى يعبر عن حاجات الشعب . « وفلسفة الفن عنده تنطلق من رفضه التسليم بنظرية « الفن للفن » وأنه حريص على ربط الفن بالحياة ، فالفن فى رأيه نشاط إنسانى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بخبرات البشر العادية ويهتم بصفة خاصة بربط الأدب بالحياة . وقد جمع عناصر نظريته من مصادر غربية متعددة ، ولكنه صبغها بصبغته الإنسانية الشرقية ، فجاءت مزيجًا من مادية الغرب وروحانية الشرق »[1] .

وقد جمع سلامة موسى آراءه الأدبية فى كتاب « الأدب للشعب » (١٩٥٦) . وكان هو والعقاد وطه حسين من أهم المفكرين تأثيرًا فى حركة الأدب الجديد وتوجيهًا للأدباء الذين يمثلون الجيل الشاب . وشخصية سلامة موسى كأديب ومفكر من أهم العوامل التى صقلت ووجهت نجيب محفوظ . وعلى هذا فإن أزمة كمال عبد الجواد فى

---

(١) فلسفة الفن فى الفكر المعاصر : زكريا إبراهيم ص ٣٨٤ .

« الثلاثية » هى أزمة الاغتراب لدى شباب هذه الفئات البرجوازية الصغيرة ، « وعدلى كريم » هو نفسه سلامة موسى .

كذلك ساعد على نشأة المذهب الواقعى ظهور المعسكر الاشتراكى قوة مؤثرة فى المجتمع الدولى بعد الحرب الثانية ، بالإضافة إلى أن علاقة بعض الأدباء والمفكرين فى مصر لم تنقطع بالتيارات السائدة فى الفكر العالمى الذى تأثر بالفلسفة الوضعية فى الفكر والمذهب الواقعى فى الأدب .

هكذا أفضت أزمة الرومانسية إلى نشأة الواقعية ، لأن أزمات الفكر والفن لا تؤدى إلى الموت ، وإنما هى بحث عن ميلاد جديد يثرى الواقع بما يتطلبه من فكر وأسلوب للتعبير .

وبظهور الواقعية لم يعد الأدب - عند كتاب الرواية فى مصر - وسيلة للمتعة الفنية ، وإنما صار ضربًا من ضروب المعرفة يلتزم فيه الأديب بمعاضدة القوى الاجتماعية الصاعدة فى حركتها الدائبة من أجل رؤية متكاملة للواقع ، وموقف إيجابى للإنسان .

على أن الذى نود أن نؤكده : أن الواقعية لم تظهر فى الرواية فجأة ، وإنما حملت كتابات الروائيين الرومانسيين مؤخرًا كثيرًا من سمات الواقعية . نجد ذلك عند الحكيم فى « يوميات نائب فى الأرياف » (١٩٣٧) - « قنديل أم هاشم » ليحيى حقى (١٩٤١) - « سلوى فى مهب الريح » لمحمود تيمور (١٩٤٣) ، كما أن هذه الفترة شهدت بدايات الواقعية فى الرواية ، إذ يصدر عصام الدين ناصف رواية « عاصفة فوق مصر » (١٩٣٩) وأحمد عيش « صرعى البؤس » (١٩٤٠) . وفى عام ١٩٤٤ يصدر عملان كبيران لعادل كامل (مليم الأكبر) ونجيب محفوظ (القاهرة الجديدة) ، وهذا معناه أن الميلاد الحقيقى الناضج للواقعية فى الرواية قد بدأ بعد أن مر بمرحلة تطويع المذهب واستنباته ، أى أن الرواية الواقعية قد نشأت فى أحضان المذهب الرومانسى الذى يحمل فى أحشائه بعض سمات ما ظهر بعده من مذاهب واتجاهات فى الأدب .

وقد انعكست الظروف السيئة للمجتمع على كتاب الرواية فى مصر خاصة الكتاب الواقعيين الذين بعدوا بالرواية عن إطارها الرومانسى التقليدى إلى الإطار الواقعى المعبر عن أزمة الواقع واتخاذ موقف من هذه الأزمة . ونجيب محفوظ يحدثنا كيف كان

كتاب الرومانسية الجدد من أمثال السحار ومحمد عبد الحليم وباكثير أكثر تفاؤلاً من كتاب الواقعية الذين كانوا يعانون «من أزمة نفسية غريبة طابعها التشاؤم الشديد والإحساس بعدم قيمة أى شيء فى الدنيا » ، ويعزو ذلك إلى سوء الأحوال السياسية وما نجم عنها ، وقد زاد من هذه الأزمة أنه تقدم هو وعادل كامل « بروايتين إلى مسابقة مجمع اللغة العربية (السراب - مليم الأكبر ، ١٩٤٤) ، فُرفضتا لأسباب أخلاقية واستدمانا « أمين سر المجمع يسدى إلينا النصح ، وكأننا من الضالين وهو يهدينا سواء السبيل »[١] .

حيال هذه الأزمة كان أمام الروائى إما الإيجابية إزاء الأحداث ، أو السلبية فى التصدى لها ، من هنا انقسم الروائيون إلى :

(ا) **واقعيين** : يتعاطفون مع القوى الجديدة ويكشفون عن العوامل التى تعوق حركة التقدم فى محاولة لتعرية الواقع ونقده لإعادة بنائه من جديد .

(ب) **رومانسيين جُدد** : انغلقوا حول الذات تعبيرًا عن عواطف مشبوبة لشخصيات لا تربطها صلة قوية بالواقع .

وهكذا واكب التيار الواقعى الشاب فى الرواية التيار الرومانسي المأزوم :

الأول : يعكس صورة الحياة فى علاقاتها الحية بالأحياء صراعًا وجدلاً من أجل تحقيق حياة أفضل ، لذلك تحول الفن فى أيديهم إلى سلاح من أسلحة النضال .

والثانى : يعبر عن رؤية سلفية للفن ، ومن ثم كانت الرواية عندهم أقرب إلى الصنعة الإنشائية وحكايات التسلية والمتعة .

ويؤكد حسين مروة أن تيار الواقعية « لم يدخل حياتنا الأدبية بإرادة مقصودة من هذه الفئة أو تلك من فئات أهل الأدب والفن ، وإنما نبت فى صميمها بفعل طبيعة الحياة العربية ذاتها أولاً ، وبفعل طبيعة الحركة الإنسانية التارجية ثانيًا ...

إن عصرنا الحاضر هو عصر الواقعية الجديدة ، أى العصر الذى يتطلب من مثل مجتمعنا العربى وهو يخوض معركة التحرير الوطنى والاجتماعى أن يرى الأدب أو الفن أو العلم لا من حيث كونها نشاطًا فرديًا محضًا ، بل من حيث هى

---

(١) عشرة أدباء يتحدثون : فؤاد دوارة . كتاب الهلال ، القاهرة يوليو ١٩٦٥ ص ٢٩٨ .

نشاط اجتماعى إنسانى ينبع من الفرد بوصفه كائنًا اجتماعيًا يمارس الحياة الاجتماعية ويتصل بأحداثها ويتأثر وجدانه بحقائقها الموضوعية ، ويؤثر هو بدوره فيها ، على قدر وعيه بقوانين تطورها وعلى قدر فهمه لضروراتها الاجتماعية »[١] .

obeikandl.com

---

(١) دراسات نقدية فى ضوء المذهب الواقعى : حسين مروة ط . المعارف - بيروت ص ٩٣ .

قضية المرأة المصرية فى الفكر والواقع

فى توازٍ متكافئ تسير قضية تحرير المرأة فى مصر مع قضية التحرير الكبرى للوطن ، ويتواكب خطّاهما البيانيان تقدمًا وانتكاسًا . وهذا يدل على أنه يمكن بسهولة قياس شمولية أى أيديولوجية من خلال فهمها لقضية المرأة ، ذلك أن مجتمعنا « يتغير نحو النضج فى لهفة وترقّب ، وهذا ما يجعل تجربة الفتاة أخصب التجارب فى مجتمعنا لأنها – لا الفتى – تنعكس عليها سمات التغيير وتصاحب حركته إلى المستقبل ، وتخوض معه عين تجربة إثبات الوجود وتكثف مشاعر التغيير التى يمر بها المجتمع ككل ، بحيث يمكننا أن نقول إنها تصلح من الناحية الفنية أن تكون رمزًا له »[1] .

ومن هنا تأتى أهمية البحث فى جذور قضية المرأة وعمق دلالته من حيث صدق تكثيفه لقضية كبرى أشمل وأعم ، هى قضية الوطن الذى أفرز القضية وحدد لها أبعادها الموازية لمسار الحرية فيه ، ولنمط العلاقات الإنسانية بين أفراده . مصداق ذلك أن قضية تحرير المرأة يتحرك مسارها الفكرى والاجتماعى مع بداية اتجاه مصر إلى طريق النهضة الحديثة . وإذا كان الطهطاوى فيلسوف النهضة الحديثة ومعلمها الأول فهو أيضًا صاحب أول دعوة لتربية البنات ووجوب السماح للمرأة بالعمل إذا اضطرتها الظروف إلى ذلك .

وتخضع القضية للمد والجزر الوطنى فتخرج المرأة إلى التصدى لمواجهة المجتمع مع خروج الشعب للتعبير عن ثورته فى مارس سنة ١٩١٩ . ومع النكسة التى أصيب بها الوطن إثر مقتل السردار وعزل سعد زغلول من الوزارة تبتعد المرأة عن السياسة وينحصر نشاطها فى العمل الاجتماعى .

ومع نمو النشاط الوطنى داخل التنظيمات العمالية تشترك المرأة فى النقابات العمالية وتطالب بحقوقها سنة ١٩٤٦ ، ومع تحرر الوطن وتحقق الاستقلال وبداية التحول الاشتراكى تنال المرأة حقوقها السياسية بموجب دستور سنة ١٩٥٦ وتدخل مجلس الأمة سنة ١٩٥٧ وتتولى الوزارة سنة ١٩٦٢ . وهذا كله يدل على صدق

---

(١) تجارب فى الأدب والنقد : شكرى عياد ص ٣٧٣ ط .

ما نذهب إليه من أن قضية المرأة شريحة تجسد قضية الوطن وتعكس المسار الفكرى والسياسى له .

وقد مرت قضية المرأة بثلاث مراحل كبرى هى :

١ - **مرحلة الدعوة إلى تعليم المرأة** : تبدأ برفاعة الطهطاوى وحتى قبيل نهاية القرن التاسع عشر .

٢ - **مرحلة التحرير والسفور** : إبان المد الليبرالى البرجوازى - مفكرها قاسم أمين - وتمتد حتى السنة التى تحولت فيها هدى شعراوى (١٩٢٤) بالاتحاد النسائى من العمل السياسى إلى العمل الاجتماعى وفصلت الاتحاد عن حزب الوفد .

٣ - **مرحلة ما بعد التحرير** : ابتداء من سنة ١٩٢٩[1] وتتناول القضايا التى أثارتها مشاركة المرأة للرجل فى المجتمع مثل : المساواة بين الفتاة والشاب فى نظام التعليم الثانوى سنة ١٩٢٤ - دخول الفتاة الجامعة سنة ١٩٢٩ - الاختلاط فى الحياة والتعليم - العمل وحقوق المرأة العاملة - التمثيل السياسى .

وإذا كانت المرحلتان السابقتان ترتبط كل منهما بمفكر معين ، فإن المرحلة الأخيرة لم ترتبط قضية من قضاياها بمفكر معين بصفة عامة . لأن القضية الكبرى لتحرير المرأة ومشاركتها فى الحياة قد وضعت موضع التنفيذ إلى حد ما ، ومن ثم لم يعد للمحاور الفرعية التى انبثقت منها نفس الأهمية التى كانت لقضية التعليم أو التحرير والسفور هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن المجتمع لم يعد يقابل هذه الأمور بنفس الانبهار والجمود اللذين كان يلقى بهما كل جديد فى الفكر والحياة ، بالإضافة إلى أن مساهمة المرأة الواعية فى حل قضاياها كانت من أهم العوامل المساعدة على إضعاف صوت المعارضة .

قضية تعليم المرأة :

يعد **رفاعة الطهطاوى** (١٨٠١ - ١٨٧٣) أول صوت ارتفع فى مصر الحديثة منادياً بوجوب تعليم المرأة . كما أنه صاحب أول مدرسة فكرية دعت إلى تعقيل وتأصيل الفكر والقيم الحضارية الجديدة اللازمة لبناء دولة حديثة شاهد مثالاً لها فى رحلته إلى باريس . وقد ذكر فى تلخيص هذه الرحلة ما رآه من تطور اجتماعى

---

(١) تبدأ هذه المرحلة سنة ١٩٢٩ حيث تخرجت أول دفعة من الفتيات الحاصلات على شهادة الدراسة الثانوية بنفس المناهج التى تدرس للبنين . وقد ترتب على ذلك دخول الفتاة الجامعة فى العام الدراسى (١٩٢٩ - ١٩٣٠) .

خاص بمكانة المرأة فى المجتمع والمساواة بينها وبين الرجل . ومن هنا قرر فى جرأة أن « وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة » . لذلك نادى بحماس فى « المرشد الأمين » (١٨٣٢) بوجوب تعليم المرأة لأنه « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان لحسن معاشرة الأزواج ، وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، وإذا كانت البطالة مذمومة فى الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء » .

ومن الطبيعى حسب ظروف العصر الذى لا يؤمن بجديد إلا إذا خرج من إهاب الدين أن يربط الطهطاوى آراءه فى تعليم المرأة وعملها بالدين . ومن ثم راح يروى ما حدث عن نساء فى زمن الرسول كن يعلمن القراءة والكتابة ويشاركن فى الأدب ويحضرن الغزوات . وإذا كان رفاعة لم يتعرض للحديث المباشر عن السفور فلا شك أن دعوته كانت تحمل بين ثناياها نداء خفيًا له ، ثم إن الأيديولوجية القائمة لم تكن مهيئة لقبوله أو التعرض له .

ثم تستمر هذه الدعوة إلى التعليم لينضوى تحت لوائها أحمد فارس الشدياق فى كتبه : الساق على الساق فيما هو الفرياق (١٨٥٢) - كشف المخبأ عن فنون أوربا (١٨٥٤) ، وآراؤه فى المرأة ووظيفتها الاجتماعية لا تخرجه عن معسكر المحافظين[1] .

وعلى مبارك - يعد أيضًا من المنادين بتعليم المرأة ، إذ كتب سنة ١٨٧١ كتابًا بعنوان « طريق الهجاء والتمرين على اللغة العربية » نادى فى فصل منه بأن « من جملة الأحسان إليهن - الفتيات الصغار - أن يجعل لهن حظ فى التربية العمومية ومشاركة فيما يليق لهن من المزايا العلمية ، فضلاً عما يجب تمرينهن عليه من أصول حسن تربية الأطفال وأشغال الخياطة والتطريز وحسن تدبير المنازل والمحال ، فإن ذلك يزيدهن جمالاً وعفة وكمالاً وهو وصف مدح لهن ، كما هو حقهن ضمن النوع البشرى »[2] .

كذلك رأى الإمام محمد عبده أن من أخطر أسباب الضعف التى أصابت المسلمين كما قال فى رده على هانوتو « أن النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في

(١) المؤثرات الأجنبية فى الأدب الحديث : لويس عوض جـ ٢ ص ٣٠ ط . معهد الدراسات العربية القاهرة .
(٢) المرأة فى مختلف العصور : أحمد خاكى ط . دار المعارف بمصر . ص ١١٨ .

دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع » . كما قال فى إحدى خطبه بالجمعية الخيرية « نتمنى تربية بناتنا فإن الله تعالى يقول « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشرك الرجل والمرأة فى التكاليف الدينية والدنيوية ، وترك البنات يفترسهن الجهل وتستهويهن الغباوة يعد من الجرم العظيم »[١] .

ومن المعروف أن الإمام كان يناصر قاسم أمين فيما دعا إليه من تطوير لقوانين الأحوال الشخصية للمرأة ، والنهى عن تعدد الزوجات ، ولعل هذا سر توجه قاسم إليه بالشكر فى نهاية كتابة « المرأة الجديدة » . وشارلز آدمز يشير إلى هذه الحقيقة بقوله « إن من أهم الأفكار التى برزت فيما كتبه الشيخ محمد عبده وصحيفة المنار ضرورة تربية البنات وتعليمهن تعليمًا لا يقل عن تعليم الذكور وإصلاح الحياة الاجتماعية والعادات التى تمس حياة المرأة فى البلاد الإسلامية »[٢] .

ويظهر تعاطف الإمام مع دعوة قاسم أمين وتأييده لها ، مما يروى من أن « قاسم أمين اجتمع بمحمد عبده سنة ١٨٩٧ فى جنيف وتلى عليه بعض فصول كتابه تحرير المرأة فى حضور سعد زغلول ولطفى السيد »[٣] . وكان منصب الإمام الدينى يحول دون أن يكثر من الإعلان عن رأيه بصراحة فى تعليم المرأة وإصلاح حالها ، لذلك أوعز إلى تلميذه رشيد رضا بأن يقف من القضية موقف المؤيد وأن يفتح لها صدر صحيفته « المنار » .

هذه نماذج لآراء بعض المنادين بتعليم المرأة كمرحلة أولى فى التحرير . ولعل أهم ما يلاحظ على طابع الفكر المنادى بتعليم المرأة هو ربطها بإطار الدين من ناحية ، ومن ناحية ثانية ربطها بإطار الدعوة العامة للإصلاح الاجتماعى ، فهم كأصحاب مذهب المنفعة يربطون بين العمل وفائدته كما يربطون بين الحق والخير والجمال . كذلك نلاحظ أن معظمهم ينتمى إلى المدرسة السلفية التجديدية التى تجمع بين الثقافة الدينية العربية والغربية المدنية ، لأن اليقظة والنهضة لم يفرزا بعد ذوى الثقافة المدنية الخالصة .

---

(١) محمد عبده : عباس العقاد ط . التربية والتعليم بمصر ص ٢٩٩ .

(٢) الإسلام والتجديد فى مصر - تشارلز آدمز - ترجمة عباس محمود . ط . لجنة ترجمة دائرة المعارف القاهرة ص ٢٢١ .

(٣) قاسم أمين : ماهر فهمى ، المؤسسة المصرية ص ١٥٩ .

وقد ساير تحرير المرأة فى هذه المرحلة الدعوة المتواضعة لتعليمها[١] .

قضية التحرير والسفور :

تعد هذه المرحلة خطوة أكثر تقدمية فى تاريخ تحرير المرأة المصرية لنصل بالقضية إلى نقطة الصراع ، ذلك أن التطور قدر لنهاية القرن الماضى وأوائل القرن الحالى أن تشهد معركة حامية بالنسبة لمؤيدى السفور والتحرير ومعارضيه . فقد اختلف الناس حيال هذه القضية بين مؤيد يراها خطوة لا محيد عنها للتقدم والرقى ، ومعترض رجعى يراها من علامات الجاهلية ودعوة إلى الفسق والخروج على تعاليم الدين . ومن سمات التطور فى هذه المرحلة أن المؤيدين لا يستندون فى رأيهم إلى أساس دينى فحسب ، بل إن أساس دفاعهم مبنى على أساس عقلى يعتمد على الأقناع والبرهنة المنطقية . كما نجد أن النساء أنفسهن يشاركن فى الدفاع عن القضية ، وليس من المتصور أن تبلغ تقدمية احداهن إذ ذاك فى الدفاع مبلغ تقدمية الرجال . وقد ظهرت فى هذه الفترة عائشة التيمورية – الآنسة مى – نبوية مصطفى – لبيبة هاشم – الأميرة فاطمة اسماعيل التى كانت من المتحمسات لتأسيس الجامعة وقد تبرعت بالكثير من مالها الخاص للجامعة . (وما زال هناك على باب كلية آداب القاهرة لوحة رخامية تفيد بأنها من آثارها) – الأميرة عين الحياة التى كانت تعمل معها هدى شعراوى فى مجال النشاط النسائى . ولعل اكثرهن تقدمية فى الدفاع العملى والنظرى « باحثة البادية » ملك حفنى ناصف (١٨٨٧ – ١٩١٨) وبرغم كونها معاصرة لقاسم أمين إلا أن آرائها تعد متممة لدور رفاعة ودعوته ، وهذا ما يؤيد رأى

---

(١) يمكن أن نتتبع سير تعليم الفتاة من النقاط التالية :

– سنة ١٨٧٣ فتح التعليم الابتدائى للبنات (مدرسة السنية) بينما فتح للبنين ١٨٣٢ .

– سنة١٨٨٩ استولت نظارة المعارف على كتاتيب تعليم الفتيات من الأزهر وطورتها .

– سنة ١٩٠٣ أنشئت أول مدرسة أولية للمعلمات ببولاق .

– سنة ١٩٢٥ تم توحيد نظام الدراسة الابتدائية والثانوية للفتيان والفتيات ، وهذه السنة تعد نقطة تحول فى تعليم المرأة لأنها أهلت بعد ذلك لدخول الفتاة الجامعة .

– حسب إحصائية سنة ١٩٤٧ وجد أن نسبة الأمية فى الإناث فى الوجه القبلى ٨٧٪ ونسبة الأمية فى الإناث فى الوجه البحرى ٨٥,٩٪ . وكانت النسب العامة للأمية فى مصر ٣٧,٧٪ .

– كانت القاهرة تمثل أعلى نسبة لتعليم الفتاة .

(لمزيد من التفصيل يراجع : زينب محرز : تعليم الفتاة فى ج . ع . م . محمد خيرى حربى – السيد المزازى : تطوير التربية والتعليم فى إقليم مصر . أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر) .

سهير القلماوى من أن « الدعوة سميت عندها إصلاحا وسماها قاسم أمين تحريرا » وهذا بلاشك يوضح مدى الفرق بينهما ، « ولكن يكفيها أنها كانت رائدة فى الميدان فلم تحمل امرأة قبلها على عاتقها دعوة الإصلاح فى أحوال المرأة بمثل هذا الوضوح والتخصص والحماس »[١] .

وكانت اول خطيبة مصرية فى نادى حزب الأمة ، وأسست « الاتحاد النسائى التهذيبى » ونادت سنة ١٩١١ بإصدار تشريع يكفل للمرأة حقوقها الاجتماعية والتعليمية ، ولكن موقفها بالنسبة للحجاب كان محافظا لا ترى أن الوقت قد حان له ، ولعل سر تحفظها هو معالجتها له من خلال النظرة الدينية :

أما السفورُ فحكمُه ... فى الشَّرعِ ليس بمُعضِل
ذهبَ الأئمةُ فيه ... بينَ محرِم ومُحَلِل
ويجوزُ بالإجْماع منـ ... ـهم عند قَصْد تأهل
من بعدِ أقوالِ الأ ... ئمةِ لا مجالَ لمقولِ

وقد قرنت دعوتها لإصلاح حال المرأة بالدعوة إلى الثورة وطلب الحرية :

يا أمةً نثرتْ منظومَها الغيرُ ... حتامَ صبر ونارُ الشرِّ تستعرُ
ماذا تقولون فى ضيمٍ يُراد بكم ... حتى كأنكُم الأوتادُ والحَجَر[٢]

وقد ناصر الدعوة إلى تحرير المرأة فى هذه الفترة : سعد زغلول - لطفى السيد - ولى الدين يكن - محمد حسين هيكل - طه حسين - سلامة موسى - طلعت حرب - مصطفى فهمى - فرح أنطون - أحمد حسن الزيات - مصطفى المنفلوطى - أحمد شوقى - حافظ ابراهيم .

ولكن قاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨) ينفرد بكونه قد اتخذ من الدفاع عن حقوق المرأة ميدانا برزت فيه جهوده الإصلاحية كلها . وكتابه الأول « تحرير المرأة » (١٨٩٨) يعد انطلاقة ، إذ مضى يدعو « كل محب للحقيقة أن يبحث معى فى حالة النساء المصريات ، وأنا على يقين من أنه يصل وحده إلى النتيجة التى وصلت إليها وهى ضرورة الإصلاح فيها » . وهو يربط بين قضية المرأة وقضية الوطن من

---

(١) آثار باحثة البادية : مجدى ناصف ، تقديم سهير القلماوى ط . المؤسسة المصرية ص ٣٥ .
(٢) باحثة البادية : عبد السلام العشرى ط . وزارة التربية والتعليم ص ٩٣ .

حيث التأخر ، أو كما يقول بين « تلازم انحطاط المرأة وانحطاط الأمة وتوحشها وبين ارتقاء المرأة وتقدم الأمة ومدنيتها »[١] .

وتكتسب دعوته أهميتها من كونها دعوة عامة موجهة إلى « الحكومة وعقلاء الأمة وأرباب الأقلام . » وهى لا تقف عند الدعوة إلى التعليم (الابتدائى على الأقل) ، وانما تمتد لتشمل رفع الحجاب على مراحل حتى تألفه الأمة ، ويطلب أن يكون السفور منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية . وينطلق بدعوته الى ما هو أبعد من ذلك ، إذ يرى « وجوب فتح باب العمل أمامها » و « عدم الحيلولة بينها وبين الحياة العامة والعمل فى أى شىء يتعلق بها » .

وهو يشخص السبب الذى من أجله ينادى بدعوته فى مواضع عدة وبأكثر من دليل ، ذلك أنه يرى أن « البطالة التى ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كأنها من لوازم حياتهن هى أم الرذائل . وإن كان نساؤنا لا يعملن شيئا فى المنازل ولا يحترفن صنعة ولا يعرفن فنا ولا يشتغلن بعلم ولا يقرأن كتابا ولا يعبدن الله فبماذا يشتغلن إذن ؟ »[٢] .

و « تحرير المرأة » من أخطر الكتب التى أثارتْ جدلاً وصراعا فكريا ، ومن هذه الناحية الجدلية الفكرية فإنه يذكر بكتاب : « الشعر الجاهلى » لطه حسين (١٩٢٥) – « والإسلام وأصول الحكم » للشيخ مصطفى عبد الرازق (١٩٢٦) . ويحكى أحد المعاصرين له « أن حادثا وقع ، لفت أنظار الناس جميعا وأثار ضجة لم تفتنا نحن الصغار يومئذ ، ذلك أن قاسم بك أمين المستشار بمحكمة الاستئناف نشر كتاباً له بعنوان « تحرير المرأة » طلب فيه تعليم المرأة ورفع الحجاب عنها . وكان تعليم المرأة يومئذ أمراً إداً ، لا يقدم عليه رجل حريص على احترام الجمهور المصرى له . أما رفع الحجاب وخروج المرأة سافرة إلى المجتمعات فكان القول به أدنى الأشياء الى تحليل ما حرّم الله إن لم يكن الشرك بالله . فقد كانت المرأة يومئذ محكوماً عليها ألا تتعلم وأن لا تخرج من بيتها إلا لضرورة ملحّة وإلا محجوبة الوجه . والمرأة المصرية التى كان يجرى عليها هذا الحكم لم تكن المرأة الفلاحة المضطرة بحكم الحياة إلى مشاركة زوجها فى عمله ، بل المرأة التى يستطيع زوجها أو أهلها ان يعفوها من مشقة الخروج من البيت .

---

(١) تحرير المرأة : قاسم أمين ط . روز اليوسف ، القاهرة (١٩٤١) ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣ .

كان ظهور هذا الكتاب حدثا خطيرا اضطربت له آراء الهيئات الدينية ، واضطرب له كثير من المتعلمين أنفسهم . وأبدى الخديوى عباس سخطه على الكتاب وعلى مؤلفه ، حتى لقد أمر بألا يدخل قاسم أمين قصر عابدين،مع ما كان له من رفعة المركز فى القضاء ومع ما كان يتمتع به بين زملائه من كرامة واحترام . وقد نشر هذا الكتاب تباعاً أول ما نشر فى جريدة « المؤيد » فكان لنشره دوىّ اضطرب له صاحب « المؤيد »،واضطر معه أن يفسح جريدته للطاعنين على الكتاب وصاحبه بأشد المطاعن . على أن الآراء التى حواها الكتاب أثارت من تطلع الشباب ما جعلهم يفكرون فى الأمر جديا ، يرى أكثرهم فيه مروقا من الدين وتمهيدا للإلحاد . ويرى بعضهم أنه حق وأنه الوسيلة الوحيدة لخلق شعب حرّ يدرك الحياة إدراكا صحيحا ، كما أنه العدل كل العدل ألا تُحرم المرأة من نور الحياة ومن نور العلم الذى يزيدها للحياة إدراكا وتقديرا صحيحا »[1] .

هذه الآراء التقدمية لقاسم وما أحدثته من آثار فى ذلك الجو المحافظ تدل على ما كان له من شجاعة ووضوح فى رؤية متطلبات الواقع ، وما أحدثته دعوته من حركة فى ذلك الوسط الرجعى الذى مضى يهاجمه فى أفكاره وشخصه ، لذلك يخاطبه حافظ ابراهيم مشفقا عليه من هذه الحملة المسعورة قائلا :

أقاسمُ إن القوم ماتتْ قلوبهم ... ولم يفقهوا فى السفر ما أنت كاتبهُ
إلى اليوم لم يُرفع حجابُ ضلالهم ... فمن ذا تناديه ومن ذا تُعاتبه ؟

ومع ذلك فقد استمر قاسم فى دعوته فأصدر سنة ١٩٠٠ كتاب « المرأة الجديدة » الذى يعد خطوة أكثر تقدمية ، سواء من حيث الدعوة الإصلاحية أو المنهج العلمى الذى يتبعه فى دراسته ، إذ لم يعد يربط تقدم المصرية ببيئتها بل ينقلها لتصل إلى نفس المكانة التى وصلت إليها المرأة الأوربية ، وتمنح نصيبها من الترقى فى العلم والأدب ، وإذا تم ذلك فيما يرى فهذه الحركة الصغيرة سوف تعد « أكبر حادثة فى تاريخ مصر » . ذلك أنه « إذ أراد المصريون أن يُصلحوا أحوالهم فعليهم أن يبدءوا فى الإصلاح من أوله . يجب عليهم ألا يعتقدوا بأن لا رجاء فى أن يكونوا أمة حية ذات شأن بين الأمم الراقية ومقام فى عالم التمدن الانسانى قبل أن تكون بيوتهم وعائلاتهم وسطا صالحا لأعداد رجال متصفين بتلك الصفات التى يتوقف عليها

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية : هيكل ط . النهضة المصرية جـ ١ ص ٢٥ .

النجاح . ولا رجاء فى أن البيوت والعائلات تصير ذلك الوسط الصالح الا اذا تربت النساء وشاركن الرجال فى أفكارهم وآمالهم وآلامهم إن لم يشاركنهم فى جميع أعمالهم . »[١] .

ويذهب هيكل إلى أن كتابْ قاسم فيهما شىء من « الرومانتسم » الغربى وتحليل الطبيعة الانسانية فى أرق عواطفها وأدق وجداناتها فقد كان ينظر إلى عاطفة الحب نظرة عبادة وتقديس ، وأن مثال الجمال عنده مجسم فى المرأة وهى مصدر الوحى لكل الفنون . كما يرى أن دعوة قاسم لتحرير المرأة جزء من برنامجه الإصلاحى الذى امتد ليشمل الدعوة لإنشاء الجامعة وتجديد اللغة والأدب .[٢] .

كذلك فإن دعوة قاسم « كانت متأثرة بالفكرة الليبرالية البرجوازية فى أمهات مصادرها عند روسو وستيوارت مل وبنتام . وكذلك فأنه يربط بين فكرة الحرية ومبدأ الخير مما يذكر بأصحاب المنفعة الذين يربطون بين القيم المثالية وفائدتها العملية فى الحياة ورقى الانسان الذى تحركه دوافع الجمال والحق والخير . »[٣] .

وكانت دعوة قاسم من الإيجابية وارتفاع الصوت بدرجة انتقل معها التأثير إلى الأقطار العربية ، وظهر صداها الفكرى فى بعض منها .

وكان لطفى السيد أيضا من أنصار تحرير المرأة والمتحمسين لها . وخطورة آرائه فى أنها لا تعبر عن رأى شخص بل لأنها تقعد آراء المدرسة الليبرالية فى التفكير التى يتزعمها . وقد عاصر قاسم أمين وآمن بدعوته وفتح أبواب « الجريدة » ونادى حزب الأمة للمرأة وحركة تحريرها كتابة وخطابة . وقد كان يرى أن تعلم المرأة « طريق إلى رقى الأسرة فالرقى الاجتماعى المنشود ومن ثم استقلال البلاد » . كذلك يؤكد أن « ترقية الفتاة المصرية إتيان للاستقلال من بابه ودخول إلى التقدم من نهجه الواضح الخالى من عقبات المصادفة وسوء البخت »[٤] .

ودعوته تحمل سمت الهدوء والمحافظة انطلاقا من نظرته الاصلاحية – لا الثورية – لتقدم المجتمع وتحرره ، ومن هنا كانت الدعوة إلى تعلم الفتاة عنده

---

(١) المرأة الجديدة ؛ قاسم أمين ط . المعارف سنة ١٩٠٠ ص ٢١٥ .

(٢) تراجم مصرية وغربية : هيكل . مطبعة مصر ص ١٥٨ .

(٣) المؤثرات الأجنبية فى الأدب الحديث : لويس عوض ، جـ ١ ص ٦ .

(٤) مقال بالجريدة ٤ / ٤ / ١٩٠٨ ومنشور فى « مبادئ لطفى السيد » كتاب الهلال ، القاهرة ، العدد ١٤٩ ص ١٥٦ .

ذات طرفين : « طرف متمدن مصفى بمصفاة التمدن الحديث تتفق به مع زوجها الشاب المتعلم ، وطرف آخر يدخل فى تركيبه مقدار كثير من عادات السيدات المصريات تتفق به مع أمها وحماتها وعائلة زوجها ، فخير للفتاة المصرية أن تتعلم أو تتم تعليمها فى المدرسة السنية عند الإمكان . »[١]

فالمناداة بالتعليم والحرية للمرأة لا تهدف إلى العمل أو ممارسة السياسة ، وإنما من أجل الحرية الشخصية والاستقلال الذاتى « حتى تمحى من نفوسهن آثار الاستبداد والاستعباد » . وهو فى تأكيده على الحرية الشخصية ينطلق من إيمانه المطلق بحرية الفرد كأساس لكل الحريات ، ولعل هذا ما جعل لويس عوض يذهب الى أن «رأيه سواء فيما يتصل بتعليم المرأة وعملها أو مساواتها بالرجل أدنى ثورية وتقدمية من رأى قاسم الذى كان يفكر فى تحرير المرأة واسعادها أولا ، أما لطفى السيد فكان يفكر فى تحرير الرجل وإسعاده . »[٢] .

وسلامة موسى : يتخذ من الدفاع عن قضية المرأة أحد المحاور الأساسية لجهوده منذ وقت مبكر ، حيث نجده فى « مقدمة السبرمان » (١٩١٠) يركز ميادين نضاله الفكرى الذى امتد قرابة نصف قرن ، يؤيد وجوب المناداة بروح جديدة للآداب ونشر الاتجاه العلمى فى التفكير والتنديد بالحكومة الجائرة .

وينهى الكتاب بفصل عن المرأة المصرية ينادى فيه بتحريرها ورفع الحجاب عنها « والحق أننا الآن بواسطة هذا الحجاب نعيش فى العالم وكأننا فى محجر ، بمثابة المجذومين لا يمسهم أحد ، نتجنب الناس والناس يتجنبوننا . فالعالم المتمدين يجرى مع نسائه على قواعد الحرية والمساواة ، الا نحن فأننا نحبسهن فنعطل فيهن كفاياتهن ونقف أمام الأوربيين موقف المتوحشين ... وهذا الحجاب لم يخلق لبيئتنا ولا عذر لنا فى أن نبقيه فى بلادنا دقيقة واحدة . »[٣] .

وخلاصة الأمر أن القضية كانت مثار جدل ومناقشة فى المجتمع شارك فيها الرجال والنساء ، ومهد لخطوة إيجابية فى تاريخ المرأة ما قامت به المرأة نفسها فحلت القضية ووضعتها موضع التنفيذ ، وهى فى سعيها نحو هذه الحركة لم تكن تهدف خدمة

---

(١) مقال بالجريدة ١١ / ٦ / ١٩٠٨ ومنشور فى المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٢) المؤثرات الأجنبية فى الأدب الحديث : لويس عوض جـ ١ ص ٧٩ .

(٣) مقدمة السبرمان : سلامة موسى ، ط . سلامة موسى ، القاهرة ص ٢٩ .

قضيتها وإنما كانت تسعى لخطوة أكبر وأعظم، إذ كانت تعبر بها عن مشاركتها الإيجابية فى ثورة البلاد والاعتراض على نفى زعماء الثورة فى ١٦ مارس سنة ١٩١٩ ـ وهنا نجدالارتباط الوثيق على درجة واحدة بين قضيتى المرأة والوطن ، إذ خرجت المتظاهرات فى هذا اليوم « فى حشمة ووقار وعددهن يربو على ثلاثمائة من كرام العائلات وأعددن احتجاجا مكتوباً ليقدمنه إلى معتمدى الدول ...

وسارت السيدات فى صفين منتظمين . وجميعهن يحملن أعلاماً صغيرة ، وطفن الشوارع الرئيسية فى موكب كبير ... وخرج أكثر أهل القاهرة رجالا ونساء لمشاهدة هذا الموكب البهيج الذى لم يسبق له نظير وأخذوا يرددون هتافاتهن . »[١]

وقد تزعمت النشاط النسائى أثناء الثورة وبعدها هدى شعراوى ، وتم تكوين لجنة الوفد المركزى للسيدات بعد الثورة وكانت هدى رئيسة لها ، ورغم ذلك لم يقبل الوفد عضوية المرأة ولم يُسمح أو ينادلهن بحق التصويت فى الانتخاب أو الترشيح .

ويشير سعد زغلول فى خطبه إلى اعتزازه بموقف السيدات من الثورة « اللاتى كتبن بأعمالهن المجيدة صحيفة من أجل صحائف تاريخ النهضة الحاضرة فلهن الشكر ولتصيحوا جميعا :« لتحيا السيدة المصرية » . وكان تأييد سعد زغلول لقاسم منذ وقت مبكر مما يجعله يهدى إليه « المرأة الجديدة » ، وإذا كانت خطبه تشيد كثيرا بأنه من أنصار تحرير المرأة ومن المقتنعين به ، لأنه « بغير هذا التحرير لا نستطيع بلوغ غاياتنا » فإنه لم يحاول أن يترجم آراءه إلى مواقف عملية أو مكاسب حقيقية لقضية المرأة . على أن الذى يبقى له بعد ذلك هو مساهمته فى رفع الحجاب عن المرأة ، ذلك أنه تصادف أن عادت معه من أوربا السيدتان هدى شعراوى وسيزا نبراوى (١٩٢٤) بعد أن مثلتا الاتحاد النسائى المصرى .. وقد قررتا رفع الحجاب بمجرد النزول الى أرض الوطن . ولا ندرى إن كان ذلك مصادفة أم اتفاقا ، فراوية الواقعة – درية شفيق – لا تشير إلى ما يؤكد هذه الحقيقة أو ينفيها .[٢]

والذى يرجح أن ثمة اتفاقا بين هدى شعراوى وسيزا نبراوى من ناحية ، وسعد زغلول من ناحية أخرى أو موافقة على الأقل ، ما ترويه السيدة فكرية حسن إحدى زعيمات النهضة النسائية فى ذلك العهد من أنها كانت تخطب ذات مرة « وكان

---

(١) ثورة سنة ١٩١٩ : عبد الرحمن الرافعى ، ط .. دار الشعب . القاهرة . جـ ١ ص ١٩٧ .

(٢) المرأة المصرية : درية شفيق ط . مطبعة مصر . القاهرة ص ١٩٧٣ .

اليشمك يضايقنى وسعدت جدا عندما رفع سعد زغلول الحجاب من فوق وجهى أثناء خطبة من خطبى . »[١]

من أجل هذا كله نستطيع أن نقرر لسعد فضل كبير فى رفع الحجاب ، ولعل هذا ما جعل السيدة منيرة ثابت تطلق عليه لقب « الزعيم السفورى الجليل . »[٢]

ورغم كل هذا صدر دستور ١٩٢٣ دون أن يشير إلى مكاسب للمرأة ، كذلك لم يقدم الوفد برنامجا خاصا لاصلاح شئون المرأة الاجتماعية أو السياسية ، بل حاول أن يحتوى الاتحاد النسائى كما احتوى اتحاد العمال وكل اتحاد جماهيرى ظهر فى تلك الفترة ، وفى أثر الموقف السلبى لسعد زغلول عشية مقتل السردار شنت عليه هدى شعراوى حملة صحفية تسرد فيها الأخطاء التى تردى فيها ، وتختمها قائلة « ألتمس منك مادمت لم توفق وأنت فى الحكم لتحقيق عهدك بعمل ايجابى ألا تكون على الأقل حجر عثرة فى سبيل جهاد أمتك للتخلص من الحالة الحرجة التى وصلت إليها ، لا أقول بسبب سياستك بل يكفى أن أقول أثناء حكمك وذلك بعمل سلبى هو التخلى عن الحكم . » واشتد الخلاف بين الاثنين .. وتبع ذلك خروجها من اللجنة المركزية والتنحى عن العمل السياسى ومالت « بالاتحاد النسوى » إلى الناحية الاجتماعية .[٣]

هذه الانتكاسة لقضية المرأة واحدة من الانتكاسات التى أصيب بها الوطن بعد فشل الثورة . ومع ذلك سارت قضية المرأة فى تطور بحكم تغير المجتمع وتقدم الفكر ، ففى سنة ١٩٢٥ تمّت خطوتان كبيرتان بالنسبة لتطوير وضع المرأة وأدتا الى تقدم حقيقى بالنسبة للمرأة هما :

١ – توحيد نظم التعليم ومناهجه فى الابتدائى والثانوى بالنسبة للبنين والبنات . وقد مهدت هذه الخطوة لدخول الفتيات الجامعة حيث تخرجت منها أول دفعة سنة ١٩٣٣ . وكان لطفى السيد إذ ذاك مدير الجامعة وطه حسين عميد كلية الآداب ، وقد تحملا الكثير بسبب سماحهما بدخول المرأة إلى الجامعة .

٢ – بعد أن تركت هدى شعراوى العمل السياسى سنة ١٩٢٤ ولدت زعامة

---

(١) المصور العدد ٢٣١٧ فى ٧ / ٣ / ١٩٦٩ عدد خاص عن ثورة سنة ١٩١٩ .

(٢) ثورة فى البرج العاجى : منيرة ثابت – طبعة دار المعارف ص ٢ .

(٣) وديع أمين : مقال بعنوان الجذور التاريخية لنضال المرأة فى مصر – مجلة الطليعة ، القاهرة نوفمبر ١٩٦٩ .

جديدة بقيادة منيرة ثابت تناضل من أجل دخول النساء إلى البرلمان كزائرات مستمعات بعد أن طردن منه عضوات . ثم أصدرت فى أواخر سنة ١٩٢٥ جريدتين باسم « الأمل » إحداهما يومية فرنسية والثانية عربية أسبوعية ، من أجل السعى للحصول على حق التصويت للمرأة ثم حق تمتعها بالعضوية فى المجالس النيابية على اختلافها »[١] .

وهذا يدل على أن قضية المرأة – أو أى قضية اجتماعية أو فكرية – ليست مرتبطة بذوات بأعينهم ، وإنما هى ميراث شعب لا ينقطع الخط فيها بتحول مسار الأفراد .

قضايا ما بعد التحرير :

ترتب على حركة المرأة فى المجتمع أن ظهرت قضايا كثيرة تتصل بها ، وإذا كان لا يمكن تحديد البدء فى هذه المرحلة أو حتى الانتهاء إلى الآن ، فأننا نحصر هذه المرحلة فى الفترة الزمنية الواقعة بين ١٩٢٩ – وهى السنة التى دخلت فيها الفتاة الجامعة إلى قيام الثورة . وهذه السنة التى قامت فيها الثورة (١٩٥٢) لا تنهى هذه القضايا وإن كانت تنهى الفترة الزمنية التى ارتبط بها البحث ، وليس من اليسير تحديد الأمور والمسائل التى أثارتها المرأة بحركتها فى المجتمع أو ربطها بمفكر معين تستقطب كفاحه أو فكره ، لأن هذه القضايا تابعة للقضيتين الكبيرتين الأوليين – وهما : التعليم والتحرير – وحلها منوط بحتمية التطور بقدر حاجتها للنضال الفكرى ، فقضية الاختلاط بين الجنسين فى الجامعة أو المجتمع ، وقضية فتح أبواب الجامعة كلها أمام الفتاة ، قضايا يسيرة اذا ما قورنت بالقضيتين السابقتين .

وفى الحقيقة أن التتبع المتأنى لكتابات المفكرين بكل تفصيلاتها فى هذه المرحلة محاولة أكثر طموحا من أن يستوعبها فصل من بحث ، لأن الأدباء والمفكرين كان لكل منهم رأى فى حرية المرأة وعملها وحركتها فى المجتمع . وقد دار فى هذه القضايا جدل طويل بينهم . ويمكن أن نقول على وجه الإجمال : إن موقف الإنسان المصرى من قضية المرأة بين الثورتين كان يتحدد انطلاقا من موقفه العام من جميع القضايا الفكرية والأدبية والاجتماعية ، ذلك أن المناصرة لحتمية التطور كان

---

(١) ثورة فى البرج العاجى .. منيرة ثابت ص ٢٥ .

رأيه تقدميا فى كل ما يتصل بالواقع كله ، ذلك أن العمل على تحرير الفرد من رواسب القرون الوسطى ، يوازى العمل على تحرير الجماعة والمبادئ والقيم التى تدين بها ، أملا فى الوصول إلى المستوى الحضارى الذى أحرزته بعض الدول المتقدمة .

لذلك كان أنصار التجديد فى الفكر والأدب هم بأعينهم المؤيدون بضعة عامة لقضية المرأة والمناداة بإصلاح وضعها فى المجتمع ، والعكس صحيح فقد كان معظم المعارضين لحرية المرأة وعملها من المحافظين الذين تعوقهم نظرتهم السلفية عن التحليق الفكرى لمستوى التقدم المطلوب للعصر الذى يعيشون فيه .

ومن أبرز القضايا التى ظهرت فى هذه المرحلة عمل المرأة والحقوق السياسية لها ، وأما بالنسبة للقضية الأولى الخاصة بالعمل فنجد أن حلها لم يكن منوطا بالفكر النظرى قدر حاجته الى أفق متسع من المشرعين وصلابة فكرية فى الدفاع عن الرأى من العاملات . أى أن القضية أصبحت قضية نوعية لا توجد فى وحدة عمالية بالدرجة التى توجد بها فى الأخرى ، وكان من أهم القوانين ظلما بالنسبة للمرأة العاملة ما كان متبعا فى وزارة المعارف من تحريم الزواج للمدرسات مدة تتراوح بين خمس سنوات إلى سبع ، وفصل الطالبة من الدراسة الثانوية إذا عقد عليها ، ولم يلغ القانونان إلا بعد ١٩٥٢ ، وأما بالنسبة لمبدأ الأجر المتساوى على العمل فلم يحتج لحرب طويلة لإثباته لأن عمل المرأة ظهر فى مصر بعد استقرار القوانين فى غيرها من البلدان .

إن المفكرين عندنا – فى الغالب – قد عجزت رؤيتهم عن إدراك أهمية الاستقلال الاقتصادى للمرأة كضرورة للتحرر من السيطرة الاجتماعية المفروضة عليها ، وهذا لا يتحقق إلا فى ظل نظام اشتراكى ، فتحرير الاقتصاد شرط ضرورى لتحرير الانسان ، على أن « التطوير الاقتصادى والاجتماعى للعالم المعاصر يجعل النساء يعتبرن عملهن لا ضرورة اقتصادية ووسيلة لتدوير رقم الميزانية العائلية فحسب ، بل أيضا أساسا لوضعهن الفردى والاجتماعى »[١] .

وأما بالنسبة لقضية التمثيل السياسى للمرأة فقد كانت لافتة عريضة تلوح بها كل من تكون اتحادا نسائيا أو تنشئ جريدة نسائية . نجد ذلك عند منيرة ثابت منذ

---

(١) المرأة والاشتراكية ، ترجمة جورج طرابيشى ط . الآداب – بيروت ص ٢٦ من مقال بعنوان . الاشتراكية والمرأة بقلم : جان فديفل .

عملها الصحفى النسائى واشتغالها بقضية المرأة سنة ١٩٢٥ ، وفى الحزب النسائى الذى تكون برئاسة فاطمة نعمت راشد سنة ١٩٤٢ ، وفى مجلة واتحاد « بنت النيل » لدرية شفيق سنة ١٩٤٨ ، وفى « لجنة الشابات » التى كونتها سيزا نبراوى بعد الحرب الثانية .

ومن أهم الكتب التى تناولت هذه القضية كتاب أمانى فريد « المرأة المصرية والبرلمان » سنة ١٩٤٧ ، وفيه تطالب بالحقوق السياسية للمرأة وتحث على التهديد بشعار « لا ضريبة بدون تمثيل »(No Taxion Without representotion) .

ثم كتاب **إنجى أفلاطون** : « نحن النساء المصريات » سنة ١٩٤٩ ، وتذهب فيه إلى أن اشترك المرأة فى حياة المجتمع السياسية ركن رئيسى من أركان النظام الديمقراطى الصحيح وعامل أساسى من عوامل التطوير والتقدم فى المجتمع . ثم كتاب اسماعيل مظهر « المرأة فى عصر الديمقراطية » سنة ١٩٤٩ ، والكاتب فى عرضه لوجهة نظره يكشف عن تأثر بالتفكير المادى ويطالب بالمساواة التامة ، « حتى نساير تطور العالم ، وتتم لنا قوة الحشد التى تخرج من المصنع مصنعا كامل النفع ، وتقيم الاقتصاد على أساس من القدرة الذاتية للأمة » .

ومع إيمان كثير من زعماء السياسة والفكر بدور المرأة فى المجتمع وضرورة حصولها على حقوقها السياسية فإنها لم تنل هذه الحقوق إلا فى ظل التحولات الاشتراكية بعد الثورة ، حيث دخلت المرأة مجلس الأمة (١٩٥٨) والوزارة (١٩٦٢) بعد أن اعترف لها دستور (١٩٥٦) بالحقوق السياسية وأقر الميثاق (١٩٦٢) بأن « المرأة ينبغى أن تتساوى بالرجل وأن تسقط كافة الأغلال التى تعوق حركتها الحرة حتى تساهم بوعى وإيجابية فى صنع الحياة » .

ولاشك أن استقلال الوطن والتحولات الاشتراكية هى التى أدت إلى كثير من المكاسب السياسية والاجتماعية للمرأة ، ومن هنا يرتبط تحرير المرأة بتحرير الوطن وتتدعم حريتها الفردية باستقلالها الاقتصادى .

وخلاصة القول أن تحرير المرأة باعتباره أحد المحاور الأساسية لتحرير الوطن قد شهد تطورا كبيرا بعد الثورة وما صحبها من تحولات اجتماعية واشتراكية ، لذلك بدأت المرأة تدخل كثيرا من المجالات سواء فى مناصب الحكم أو مقاعد المجالس النيابية والتنظيمات السياسية والمؤسسات العامة ووحدات الإنتاج المختلفة تحقيقا للمساواة المطلقة بينها وبين الرجل .

وتبقى حقيقتان يلزم التنبيه عليهما :

الأولى : إن قضية تحرير المرأة المصرية قد شاركت فيها بعض النساء المتمصرات ، حيث سمحت لهن ظروفهن الاجتماعية الخاصة بحرية الحركة والنشاط ، ومن ثم فقد شاركن بجهد ملحوظ فى تدعيم تحرير المرأة وقيادة الاتحادات النسائية وريادة أكثر من مجال من المجالات التى عملت فيها المرأة بعد ذلك .

الثانية : إنه على الرغم من المكاسب السياسية والاجتماعية التى نالتها بعض النساء تبقى قطاعات كبيرة فى الريف والمدن بل حتى فى العاصمة ، كن ومازلن محرومات من ممارسة حريتهن ، سواء فيما يتصل بعلاقتهن بالرجال أو بحركتهن فى إطار العلاقات الاجتماعية ، ولاشك أن ذلك يحتاج إلى تعديل بعض مفاهيمنا السلفية عن المرأة ، وفتح أبواب العلم والعمل سبيلا الى تحقيق استقلالها الاقتصادى كخطوة ضرورية لتحقيق استقلالها العاطفى والاجتماعى ، حتى نستطيع أن نحقق تقدم المجتمع ونفجر طاقاته الخلّاقة نحو العمل والبناء بفكر مفتوح وبجهد مشترك متكافئ من عنصرى الوجود - الرجل والمرأة - على قدم المساواة .

وقضية المرأة هذه التى واكبت قضية الوطن كانت تمثل بالنسبة للرواية محورا هاما من حيث المضمون الفكرى . وإن ربط صورة المرأة بالمناخ الاجتماعى الذى ظهرت فيه ، يوضح لنا كيف يعكس الأديب حركة الواقع وموقفه من هذه الحركة سلبا أو إيجابا ، وعلاقة ذلك بتناوله لصورة المرأة من الناحية التكنيكية . وسوف يتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن موقف الأديب التقدمى من قضية المرأة فى مجال الفكر يواكب أصالته الفنية فى تشكيل الصورة وبناء الرواية ، نظرا للعلاقة الوثقى التى تربط الشكل بالمضمون والصورة بالفكر الذى تعبر عنه .